الفصل السابع

الخليفة الرابع الإمام علي بن ابي طالب ()

أسمه ونسبه

علي بن أبي طالب () بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف ابن قصي بن كلاب ابن مرة القرشي الهاشمي . وأمه فاطمة بنت أسد بنت هاشم بن عبد مناف ،وهي أول هاشمية تزوجت هاشمياً وولدت له ، أدركت النبي () فأسلمت وحسن إسلامها ،وأوصت إليه حيث حضرتها الوفاة فقبل وصيتها ، وصلى عليها وألبسها رسول الله () قميصه ،واضطجع معها في قبرها فقال له أصحابه : يا رسول الل ما رأيناك صنعت بأحد ما صنعت بهذه المرأة ، فقال : إنه لم يكن أحد بعد أبي طالب أبر بي منها ، إني إنما ألبستها قميصي لتكسي من حلل الجنة ،واضطجعت معها في قبرها ليهون عليها .

ولادته :

ولد الامام علي () بمكة المشرفة داخل البيت الحرام في يوم الجمعة الثالث عشر من رجب ،ولم يولد في بيت الله الحرام احد سواه ، فقد انشق الجدار ودخلت فاطمة بنت اسد فيه ،وارادو فتح قفل الباب لكنه لم يفتح ، ثم خرجت في اليوم الرابع وعلى يدها أمير المؤمنين علي بن ابي طالب ().

وأسرع البشير الى ابي طالب وأهل بيته فأقبلوا مسرعين وتقدم من بينهم محمد المصطفى () فضمه الى صدره وحمله الى بيت ابي طالب ، وقد سمّى ابي طالب وليده علياً واقام وليمة على شرف الوليد المبارك .

بيعة الإمام علي ( علسه السلام) للخلافة سنة 35 ه

ليس للإمام علي () في هذا الوقت بالذات رغبة في الخلافة ليس هربا من المسؤولية ولكن لتعقد الظروف السياسية والاجتماعية في المجتمع الاسلامي لذا لم يكن من جانبه شديد الحماسة لهذا الأمر بعد أن فقدت الخلافة الكثير من بريقها ،وبعد أن تلاشت العوامل المساعدة على إقامة نظام إسلامي عادل ومتكافئ.

وقد أدرك الإمام علي () آثار هذه المرحلة وما تفرزه من نتائج سياسية واجتماعية وغيرها ، فأوضح للمسلمين الذين لجأوا إليه ليبايعونه فقال لهم : ((دعوني والتمسوا غيري فإنا مستقبلون أمراً له وجوه وألوان لاتقوم له القلوب ،ولا تثبت عليه العقول ... )).

ولما كان الإمام علي () رجل الساعة بعد أن أخذ معظم الساسة يتوارون عن الأنظار في عاصمة الخلافة تنكبا من التطورات التي أفلتت من قبضتهم ، كان الفراغ السلطوي ينذر بأسوا النتائج وتشتد الحاجة إلى منقذ تفزع إليه الأغلبية من الاتجاهات السياسية لا سيما الحركة المهيمنة على السلطة في المدينة ،ولما كان المطلب الرئيس لهذه الأخيرة ، هو إسقاط العائلة والفئوية فإن الأنظار شخصت حينذاك إلى علي () فقد كان علي وهو أحد القلائل من سياسي الصنف الأول خارج نطاق الاتهام والشك بسلوكه ، لذا كثر الالحاح على الامام علي () لقبول البيعة لحاجة الامة الاسلامية الى قدراته فيرد عليهم : (( إن تركتموني فأنا أحدكم ولعلي أسمعكم واطوعكم لمن وليتموه لكم ،وأنا لكم وزير خير لكم مني أمير ... )).

كان اضطراب الأوضاع والمخاوف من النتائج الأسوأ في حال استمرار هذا الفراغ قد زاد في إصرار المسلمين الذين يرون ان الواجب الشرعي يحتم على الامام علي () اعتلاء منصة الخلافة لإنقاذ الاسلام الذي باتت في الأفق علامات تهدد كيانه وهنا أصبح الإمام علي () أمام مسؤوليتين تاريخية كبرى وشرعية ضخمة وإزائهما قبل الأمر وتحمل تبعاته ،وهناك وجهة نظر جديرة بأن تؤخذ بنظر الاعتبار فإن مقتل الخليفة عثمان في أجواء الغضب الجماهيري لم يكن ثمة فرصة للخليفة أن يوصى أو يعهد لأحد بخلافته ،ولا ثمة فرصة تسنح لطامح ، أو مجتهد في مصلحة يقدرها فينفذ منها إلى مرامهم.

وبإزاء هذه الأوضاع استجاب الامام علي () أخيراً لمطالبة المسلمين مسوغاً قبوله هذه المسؤولية خوفه على مصير ومستقبل الأمة الإسلامية واكتسبت بيعة الإمام علي () صفة الاجماع إلا نفرا قليلاً تخلف عنها ويذكر أنه بايع الناس بعد ذلك من المهاجرين والأنصار ومن حضر من العرب والعجم وأهل مصر ،وبايعت أهل الكوفة بأجمعهم وبلغ ذلك لأهل اليمن فبايعوا طائعين غير مكرهين ، ثم قدموا عليه يهنونه الخلافة ،وهناك من تخلف عن البيعة مثل معاوية وأهل الشام وخواص من الناس .

وفي هذه البيعة مارس المسلمون جميعا نشاطاً سياسياً ديمقراطياً لانتخاب من يرونه مناسباً كفؤاً ليمثلهم على سدة الخلافة ،ويرى بعض المؤرخين تقلد الإمام علي () منصب الخلافة وفق مراسيمها المعروفة بالبيعة الخاصة والعامة بعد مقتل عثمان بن عفان عام (35ه) ،وذلك وسط موجة مضطربة مظلمة وكان () في هذا الموقع الزمني مغبوناً لتأخر وصوله إليها ،وما تميزت به بيعة الإمام علي () الصفة الشرعية وأنها لم تكن فلتة ولم تكن بعهد أو وصية خليفة سابق وكان لأول مرة في تاريخ الخلافة الاسلامية أن تطلق الجماهير صوتها في خيار جماهيري شجاع بهذه الطريقة الجماهيرية انتخاب الخليفة الجديد ،وقد أصبحت الخارطة السياسية والادارية والجغرافية لدولة الإمام علي () تتمثل بالعراق ومصر واليمن وخراسان ولم يبق خارجا عنها عندئذ إلا الشام.

سياسته:

1-اعادة بعض أراضي الصوافي إلى بيت المال

كان الخليفة عثمان بن عفان قد تصرف ببعض اراضي الصوافي المملوكة للدولة فأقطعها لبعض الاشخاص ، مما آثار عليه نقمة كثير من الناس ، لذا فقد قام الامام علي () بأنتزاع هذه الاملاك التي كان عثمان اقطعها إلى افراد من عماله وأقربائه من بني أمية واعادتها الى بيت المال ،ويبدو ان هذا القرار قد اثار بعض الاعتراضات بحجة ان فيه مساساً بحقوق مكتسبة ، فرد الامام عليها بقوله : (( والله لو وجدته قد تزوج به النساء وملك به الاماء لرددته ، فأن في العدل سعة ،ومن ضاق عليه العدل فالجور عليه أضيق)) .

لذا فقد شعر هؤلاء لهذه الاسباب واسباب اخرى أن العهد الجديد يسير باتجاه مناقض لمصالحهم ، لذا فقد اخذوا يتسللون من المدينة الى مكة وغيرها من الاماكن على أمل ايجاد الفرصة المناسبة لمقاومة حكم الامام علي بن ابي طالب ().

2-العدول عن سياسة التفضيل في منح العطاءات

انتهج الامام علي ) سياسة المساواة مع المسلمين جميعا كما في عهدي الرسول () والخليفة الأول أبي بكر " فألغى الإمام علي () كل أشكال التمييز مؤكداً أن التقوى والسابقة في الاسلام والصحبة من رسول () أمور لا تمنع أصحابها مراتب أو مميزات في الدنيا وإنما تلك المميزات ثوابها في الآخرة " وعند الاعتراض على هذه السياسة ومطالبة الإمام() بالتفضيل بالعطاء قال (): " أيها الناس عباد الله المسلمون ، المال مال الله نقسم بينكم بالسوية ،وليس لأحد على أحد فضل إلا بالتقوى للمتقين عند الله الجزاء وأفضل الثواب ... " .

ومن دواعي انتهاج الإمام علي () لهذه السياسة هو الحد من التفاوت الكبير الذي أحدثه الخليفة عثمان بن عفان ومن قبله الخليفة عمر بن الخطاب (رضي الله عنهما) عند استحداث نظام لتقسيم مكانة الشخص ومنزلته وقد ادى ذلك الى تجميع الأموال عند البعض وضمورها عند البعض الآخر.

وقد رفض الإمام () أية أثرة سواء كانت من جانب السابقة أو العصبية لقرابة أو لمذهب ديني أو سياسي ،وتعالى () على العنصرية ولم يفضل العربي على الأعجمي فالكل عنده سواسياً ويصف الاسكافي هذه السياسة بقوله : " كان ممن يقسم بالسوية ، وعدل في الرعية ولم يرزأ من مال الله شيئاً ، ولم تدع عليه زلة ... " .

وحاول أخوه عقيل بن ابي طالب ان يستميل الإمام علي () بشكايته بزيادة عطائه لكثرة عياله ، فلم يؤثر الامام () صلة الرحم على سياسة العدالة ،وائتمان المسلمين له على أموالهم ،وأعلن الامام () رفضه من طلب أخيه بقوله : (( والله لقد رأيت عقيلاً قد أملق حتى استماحني من بركم صاعا ، ورأيت صبيانه شعث الشعور غبر الألوان من فقرهم ... وعاودني مؤكدا وكرر القول مرارا فأصغيت إليه سمعي ، فظن أني أبيعه ديني ،واتبع قيادة مفارقا طريقتي ... ))

ولم يكن موقفه مع ابن أخيه عبد الله بن جعفر بأقل صلابة من موقفه مع أخيه عقيل حينما طلب منه نفقته أو معونة مالية فأجابه الإمام (): (( لا والله ما أجد لك شيئاً إلا أن تأمر عملك أن يسرق فيعطيك)).

حتى قيل في سياسته هذه أنه كان صلبا في دينه لا يداهن ولا يصانع ولا يخشى في إقامته الحق لومة لائم ،ولا يمنعه عن إقامة العدل رحم أو قرابة ولا صلة ولا صداقة.

ولم تثنِ الإمام عليا () المحاولات والمناورات السياسية من أصحاب المطامع الشخصية عن هذه السياسة المبدئية التي مثلت خطراً وتهديداً لمركز الإمام () وخلافته لأن نظرته وتقديره للأمور لم تكن قصيرة المدى أمدها التمسك بالسلطة والمحافظة على مركزه ، فلما طالبه بعض المستفيدين من سياسات التفاوت في العطاء في العهود السابقة بالعودة الى تلك السياسة ،وترك ما في أيديهم من أموال تكدست ، لكن تصدى لهذه المحاولات بكل صلابة بقوله : (( وأما وضعي عنكم ما أصبتم فليس لي أن أضع حق الله ،وأما إعفائي عما في أيديكم فما كان الله وللمسلمين ، فالعدل يسعكم ... )) .

ثم أن (( طائفة من أصحاب علي مشوا إليه فقالوا يا أمير المؤمنين أعط هذه الأموال وفضل هؤلاء الأشراف العرب ،وقريش على الموالي والعجم ومن يخافه من الناس قراره ... وإنما قالوا له ذلك للذي كان معاوية يصنع بمن أتاه... )) .

ويرفض الإمام هذا العرض بقوله : (( أتأمروني أن أطلب النصر بالجور فيمن وليت عليهم )) .

ومن جانب آخر فأن الإمام عليا () لم يشمل بالعطاء من لم يؤازر المسلمين ويحمل السلاح مع المجاهدين ، وعندما بعث إليه أسامة بن زيد مطالباً بعطائه ، أجابه الإمام علي (): (( إن هذا المال لمن جاهد عليه ، ولكن لي مالا بالمدينة فأصب منه ما شئت)) ولم يقم الامام () بالتسليف من بيت المال لنفسه .

وكان في وسع الإمام يأخذ من بيت المال بالدين ليحتسب من حقه عند محله ،وغالباً ما كان ينتظر نفقته تأتيه من غلته بالمدينة بينبع وكان يطعم الناس الخبز واللحم ،ويأكل هو الثريد.

أما من ناحية مواقيت العطاء فلم تحدد بوقت معلوم ،وإنما كان الوقت تحدده وصول الأموال إلى العاصمة فحال وصولها يشرع الإمام علي () بتوزيعها على المسلمين ، فقد قام الإمام () بتوزيع أربع عطاءات في سنة واحدة.

فإذا ورد المال عليه يقول : (( أيها الناس هلموا الي مالكم فخذوه فإنما أنا لكم خازن ، ثم يقسم على الأحمر والأسود حتى لا يبقى شيء ... )) .

ثم أن عليا كان ينكس بيت المال كل يوم جمعة وينضحه بالماء ويصلي ركعتين ثم يقول : تشهد لي يوم القيامة.

وفي حالة كون الأموال كثيرة يقوم الإمام علي () بتقسيمها إلى سبعة أقسام متساوية تمثل أسباع مدينة الكوفة احتياطا للعدل والمساواة ويذكر أنه (( جاء مال من أصفهان فقسمه على سبعة أسهم فوجد فيه رغيفا فقسمه على سبعة ودعا أمراء السباع ، فأقرع بينهم ... )) .

ثم شمل الإمام علي () بالعطاء من بيت المال أطفال المسلمين ضمن ضوابط حددها الإمام علي () بقوله : (( أما الصبي الذي أكل الطعام وعض الكسرة أحق بهذا العطاء من المولود الذي عض الثدي)).

إن انتهاج سياسة المساواة في العطاء من قبل الإمام علي () قد خلقت له المصاعب ، فقد فسدت عليه جيشه وتنكرت له الوجوه والأعيان ، لقد تبنى هذا العملاق العظيم مصالح البؤساء والمحرومين وآثرهم على كل شيء ، لقد أدت هذه السياسة المشرفة التي انتهجها الإمام إلى إجماع القوى المنحرفة والباغين على الإطاحة بحكومته وشل فعاليتها.

3-تغيير ولاة الامصار :

إن أولى أولويات الإمام علي () حين تقلد منصب الخلافة هو تنظيم الجهات التنفيذية والتشريعية لدولته ، لأن الإمام هو أعلى سلطة إدارية في الدولة تنتهي إليه جميع السلطات وتستمد العناصر الادارية سلطتها ، وبقدر ما يكون الإمام منيباً إلى القانون والنظم يكون المجتمع منتظماً سائراً في طريق التوازن الاجتماعي والاقتصادي.

وانطلاقا من ذلك فقد توجه الإمام علي () في مستهل سنة ( 36ه) إلى بعث عماله على الأمصار ، وكان قد ورث أعباء ثقيلة من العهد السابق ولا سيما ولاة الخليفة عثمان المطعون في سيرتهم وسياستهم التي كانت في مقدمة الأسباب للثورة على الوضع السائد آنذاك ، فأصبح القرار التغييري الأكثر إلحاحا حينذاك هو إعادة النظر في الجهاز الإداري ، كونه الأداة التنفيذية المسؤولة للخلافة.

وكان الإمام علي () قد أسند مهام الحكم في عهده في المدن والأقاليم إلى كل من أبي أيوب الأنصاري على المدينة ، وقيل : إنه ولي عليها تمام بن عباس عندما سار من المدينة نحو البصرة ، وقثم بن العباس على مكة والطائف.

أما العاصمة الكوفة فقد تعاقب عليها عدد من الولاة ،وكان أولهم أبو موسى الأشعري ،وعمارة بن شهاب ، وقرظة بن كعب الأنصاري ،وأبو مسعود البدري ،وهاني بن هوذة النخعي ،وقلد ولاية البصرة وكور الأهواز وفارس وكرمان إلى عدد من الولاة منهم عثمان بن حنيف الأنصاري ،وعبد الله بن عباس .

ويذكر أن ابن عباس قد (( جمعت إليه الصدقات والجند والمعاون أيام ولايته كلها ... )) وسمرة بن جندب ،وعين على المدائن سعد بن مسعود عم المختار الثقفي ، أمّا ولاية الموصل وما يحيط بها حتى معركة صفين سنة ( 37ه) ، فقد أسندت إلى مالك الاشتر .

في حين أسندت ولاية البحرين إلى عمر بن مسلمة ،وقدامة العجلان ، والنعمان بن العجلان الأنصاري ،وعلى عمان الحلو بن عون الأزدي ، وبعد مقتله توجه معقل بن قيس الرياحي ، عندما (( وثبت بنو ناجية ... وارتدوا عن الإسلام)).

وعقد الإمام علي () ولاية مصر إلى قيس بن سعد ،وبعده (( بعث علي على أمرة مصر مالك الأشتر النخعي فسار إليها ... فلما بلغ القلزم شربه شربة من عسل فكان فيها حتفه ... فلما بلغ عليا مالك الأشتر بعث محمد بن أبي بكر على أمره صر ،وقيل وهو الأصح أن عليا ولي محمد بن أبي بكر بعد قيس بن سعد ... )) .

وعهد بولاية اليمن الى كل من عبيد الله بن العباس ،وقثم بن العباس . أما الشام فقد أسند ولايتها إلى سهل بن حنيف ،ولكن لم يتسن له الوصول وتسليم مقاليد الأمور .

في حين ولي إقليم فارس إلى (( خليدة بن قرة اليربوعي وقيل أبن أبزي)) ، ثم تولاها زياد بن أبيه بعد سنة (40ه) بعدما طمع أهل فارس وأهل كرمان فغلب أهل كل ناحية على ما يليهم وأخرجوا عمالهم ....

وأما إقليم خراسان فقد (( بعث علي خليدة بن قرة اليربوعي ويقال خليدة بن طريف ... )) وولي على أصفهان عمر بن مسلمة ،وعقدت ولاية الري إلى يزيد بن حجية التميمي ،وكان على إقليم اصطخر المنذر بن الجارود ،وعلى أذربيجان ولى الإمام علي () الاشعث بن قيس ، وعقد لمصلقة ابن هبيرة ، على اردشير طره.